(٣)

المؤتمر القبطى فى ظلال الاستعمار الانجليزى

وبعد احتلال الانجليز لمصر [١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م] كانت «المحطة الثانية» للغواية الاستعمارية للأقلية الأرثوذكسية ـ القبطية ـ التى حاولت بعث مشروع المعلم يعقوب حنا ـ مشروع: سلخ مصر عن العروبة والإسلام.. واستخلاصها للأقباط المسيحيين!..

لقد اجتمعوا على تأييد الاحتلال الانجليزى.. والاستعانة به.. والاستنجاد بأوربا المسيحية.. لإحداث هذا الانقلاب على الإسلام والمسلمين..

وبعد مقتل بطرس غالى باشا [١٨٤٦ ـ ١٩١٠م] ـ الذى كان يسعى إلى تحقيق ذلك الهدف بالتدرج الناعم! ـ عقدوا المؤتمر القبطى ـ فى أسيوط ـ ٤ مارس سنة ١٩١١م ـ لاستعجال تحقيق هذا الانقلاب..

ولإدراك هذه الحقيقة.. والمقاصد الحقيقية لهذا المؤتمر، علينا أن نقرأ ما كتبه أعظم علماء الأمة وعيًا بحقيقة حركات **«الإحياء القومى»**: اليهودية.. والمسيحية فى الشرق الإسلامى.. وهو الإمام الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م]، الذى نبه إلى مخاطر حركة الإحياء اليهودى الصهيونية سنة ١٩١٠م ـ وإلى تحالفها مع الاستعمار الغربى ـ قبل غيره ـ وربما دون غيره ـ من العلماء والمفكرين والساسة فى تلك الفترة..[(١)].

ونبه إلى مخاطر حركة الإحياء القبطية سنة ١٩١١م. فكتب ـ بمناسبة انعقاد المؤتمر القبطى ـ الذى استهان بخطره كثير من الكتاب ـ كتب يقول:

(١) انظر ذلك بكتابنا: [من أعلام الإحياء الإسلامى] ص ٥٠ ـ ٦٠ طبعة القاهرة ـ مكتبة الشروق الدولية ـ سنة ٢٠٠٦م.

«إنهم يتحدثون عن ما يسمونه المسألة القبطية فى مصر . . بل والثورة القبطية ! . . ويريدون أن لا يذكر اسم الإسلام والإسلامية فى أمور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة . . وإنما عن الوطنية والمصرية . .

إن القبط يعملون كل شىء للقبط ، باسم القبط ، ويعبرون عن أنفسهم بالأمة القبطية ، ويسمون البلاد المصرية بلادهم وبلاد آبائهم وأجدادهم . . ويطلبون ما يطلبون من المناصب والأعمال فى الحكومة للقبط باسم القبط على أنها حق للقبط . .

والمشهور أن نسبة القبط إلى المسلمين فى هذا القطر هى نسبة من خمسة إلى ستة فى المائة . . وهم يمتلكون ثلاثين فى المائة من ثروة البلاد . . ومعظم أعمال الحكومة المصرية ومصالحها فى أيدى القبط . . وهذا هو الذى أطمع القبط فى جعل حكومة مصر قبطية محضة فى يوم من الأيام . .

ولقد أجمع القبط على تأييد الاحتلال . . وألفوا مؤتمرًا قبطيًا عامًا فى أسيوط ـ التى سماها بعضهم (عاصمة القبط) . .

وتقول القبط : إن لنا من الحقوق فى هذه الحكومة ما ليس لغيرنا ، لأننا سكان البلاد الأصليون . . ويجيبهم المسلمون على هذا بأربعة أجوبة :

١ ـ إننا لا نسلم أنكم سكان البلاد الأصليون . . وقد صرح المسلمون بهذا ، وأيدوه بأقوال مؤرخى الإفرنج .

٢ ـ إذا سلمنا أنكم من سلالة قدماء المصريين ، فإن لنا أن نتبع فيكم سنة أرقى الحكومات المسيحية علمًا وعدلاً وحرية فى سكان بلادها الأصليين ، وهى حكومة الولايات المتحدة ، فهل ترضون أن تكون حقوقكم فى هذه البلاد كحقوق هنود أمريكا فى حكومتها الآن ، وهم أهلها الأصلاء من غير خلاف ؟ .

٣ ـ إنكم تقولون إن أكثر مسلمى هذه البلاد منكم ، وأقلهم من العرب والترك والشركس ، فلا مزية لكم فى هذا النسب الشريف على جمهور المصريين المسلمين ، ولهم المزية عليكم بكثرتهم ، وكون الحاكم العام من أهل دينهم ، وذلك سبب للترجيح متبع فى الحكومات المسيحية الراقية .

٤ ـ إن طول زمن الإقامة فى بلد لا يقتضى التفضيل فى الحقوق، وقصره لا يقتضى الحرمان من شىء منها متى كان القوم الذين طالت مدتهم أو قصرت من أهل البلاد المقيمين فيها الخاضعين لشريعتها وقوانينها . . لقد كان بنو إسرائيل دخلاء فى مصر وفضلهم الله ـ تعالى ـ فى كتبه على آل فرعون، ثم فضل الله العرب واصطفاهم بإرسال رسول منهم مثلما اصطفى إخوتهم بنى إسرائيل من قبلهم بإرسال رسول منهم ـ كما أشار إلى ذلك فى سفر تثنية الاشتراع ـ فكيف تطالب حكومة مصر، التى تدين الله ـ تعالى ـ أن تميز الشعب المفضول فى كتب الله على الشعب الفاضل، بل الشعبين الفاضلين؟! . .

إن النسب الفرعونى، الذى تُدلُّ به القبط، غير مسلم لهم، وإذا سلم جدلاً فهو لا يقتضى تفضيلهم على اليهود، بل اليهود أشرف منهم نسبًا لأنهم ينتسبون إلى أنبياء الله ـ تعالى ـ والقبط تنتسب إلى الفراعنة الوثنيين أعداء الله ـ تعالى .

إن القبط شرذمة قليلة فى أمة كبيرة، تأكل من ثمراتها زهاء ثلاثين فى المائة، وهى زهاء خمسة أو ستة فى المائة . .

وتستنجد جرائد أوربا وقساوستها ليلزموا الدولة الإنكليزية أن تنصر الفئة القليلة، لأنها مسيحية، على الفئة الكثيرة الإسلامية . . وقد وعدهم بعض القسيسين والسياسيين لينفذن لهم ذلك . .

ولقد طفقوا يطعنون فى جرائدهم طعنًا صريحًا فى سلف المسلمين وخلفهم، ودينهم وآدابهم ولغتهم . . وهم يريدون أن يثبوا على الوظائف الإدارية العالية كما وثبوا فى القضاء . يريدون أن تترك الحكومة العمل فى يوم الأحد . يريدون أن تدرس الديانة المسيحية فى الكتاتيب والمدارس كلها . .

إن المسيحية قد فصلت الحكومة من الدين، كما يقولون، وأمرت أن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله، والإسلام ذو شريعةوسياسة، فما بال الذين يأمرهم دينهم بالخضوع لكل حاكم ـ وإن كان وثنيًا كقيصر الروم فى زمن المسيح عليه السلام ـ قد أصيبوا بهذا الشره فى السياسة؟! . .

إنه لا يضر من يشارك المسلمين فى الخضوع لشريعتهم إن كانوا يدينون لله بهذا الخضوع وهو لا يدين لله به، فإن حقوقه على المسلمين ـ المكفولة لهم بالشريعة

الإسلامية ـ تكون حينئذ مضمونة بقوة الحكومة فى الظاهر، وقوة الاعتقاد فى النفس. وحقوقهم عليه لا تكون مضمونة إلا فى الظاهر فقط، فالمسلم المتدين لا يأكل حق غيره وإن أمن عقاب الحكومة، وغير المسلم قد يأكل حق المسلم المحكوم به إذا أمن العقاب، لأن وجدانه لا يعارضه فى ذلك إذا اعتقد أن الحكم لا يجب الخضوع له.

ولقد كان من مقاصد بطرس غالى باشا التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية، وجعل الحكم فى الأمور الشخصية من خصائص المحاكم الأهلية، لأن طلبة الحقوق يتعلمون الفقه الإسلامى، فهو يريد أن يتعود المسلمون بالتدريج حكم لا بسى الطرابيش فى القضايا الشرعية، حتى لا يبقى للمسلمين فى الحكومة المصرية شىء من المشخصات الملية.

ولقد أراد القبط أن لا يذكر اسم الإسلام والإسلامية فى أمور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة.. ليكون الانتقال من إسلامية إلى «مصرية» مدرجة إلى الانتقال من «مصرية» إلى «قبطية»..

أليس من الذل والهوان أن نرضى بالانتقال من الإسلامية إلى «مصرية» ليكون ذلك مدرجة إلى الانتقال من «مصرية» إلى قبطية»؟!..

مع أن فى الجزائر البريطانية كثير من الكاثوليك، ولا تسمح الحكومة لهم بأن يلقنوا مذهبهم فى مدارسها، بل المذهب الذى يدرس فيها هو مذهب البورتستانت الذى عليه ملك الإنجليز وأكثر الشعب الإنكليزى، فهل تسمح هذه الحكومة الحرة بأن يدرس فى مدارسها دين اليهود من رعاياها وهى لا تسمح بتدريس مذهب الكاثوليك من مدارس دينها؟؟

ولا نشرح ما يشترط على ملك الإنكليز أن يقوله عند تتويجه من الطعن فى الكاثوليكية والبراءة منها، ولا منع الحكومة الإنكليزية الكاثوليك من إظهار بعض شعائر مذهبهم فى عيد الفصح أو غيره، وقس على ذلك سائر دول أوربا..

لقد اشتهرت مصر بأنها بلاد العجائب، وحق لها أن تشتهر بذلك، فمسلموها يقفون أرضهم حتى على أديار القبط، وينفقون من ريع أوقافهم الخاصة على تعليم القبط، وحكومتهم تسمح للقبط بأن يعلموا دينهم فى مدارسها، وهو ما لا نظير له فى الحكومات الأوربية التى تقتدى بها.

والقبط تشكون من ظلمهم، وتستغيث بأوربا منهم، وتُدلُّ عليهم بنسبها، وتدعى أنها صاحبة البلاد، وأنها أجدر بحكمها.

وفى هذه البلاد معاهد تديرها الحكومة، وينفق عليها من أوقاف المسلمين المحبوسة على تعليم أولادهم خاصة، والحكومة تقبل فى هذه المعاهد أولاد القبط فتعلمهم على نفقة المسلمين مخالفة فى ذلك شرط الواقف لأجلهم. فهل تسمح القبط بإنفاق قرش واحد من أوقافها على تعليم مسلم؟!.

إن أمر المسلمين فى تسامحهم مع القبط وترجيحهم لهم على أنفسهم، لأمرٌ غريب لم يعهد له نظير فى الأرض: وقف الخديوى الأسبق إسماعيل باشا واحدًا وعشرين ألف فدان على تعليم أولاد المسلمين وهى الأرض التى تسمى «تفتيش الوادى»، ووقف جده من قبله ثلاثة آلاف فدان على تعليم أولاد القبط، فكان عطاؤه للقبط أكثر، لأنهم لا يبلغون $\frac{١}{٨}$ المسلمين، فاستأثرت القبط بما وقف عليها، وشاركت المسلمين فيما وقف عليهم، ثم ترفع جرائدهم عقيرتها مستغيثة بأوربا المسيحية من ظلم المسلمين لهم فى التعليم!.

ومن هذا القبيل مساعدة أوقاف المسلمين للجامعة المصرية بخمسة آلاف جنيه فى كل سنة، وهى مفتحة الأبواب للقبط وغيرهم، وطلبتها من غير المسلمين يقل عددهم عن المسلمين.

لقد علمنا بالقياس المطرد المنعكس:

أن القبط ـ وهم شرذمة قليلة: من خمسة إلى ستة فى المائة من السكان ـ والذين يملكون ٣٠٪ من ثروة البلاد ـ لا يأخذون شيئًا إلا ويطلبون ما بعده، فلا يجاب طلب إلا ويعقبه طلب، ولا ينتهى أرب إلا إلى أرب، ولا يقنع هذه الفئة القليلة العدد، الكثيرة النشاط، الكبيرة الطمع، إلا أن يكون الحكم والنفوذ فى هذه البلاد خالصًا لهم من دون المسلمين..»[1].

(١) رشيد رضا [المنار] جـ ٢ مجلد ١٤ ص ١٠٨ ـ ١١٤، ١٥٩، ١٦٠ ـ فى ٣٠ صفر سنة ١٣٢٩هـ ـ أول مارس سنة ١٩١١م. وجـ ٣ مجلد ١٤ ص ٢٠٢ ـ ٢٢٦ ـ فى ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٢٩هـ ـ ٣٠ مارس سنة ١٩١١م.

تلك كانت «المحطة الثانية» من محطات الغواية الاستعمارية لقطاعات مؤثرة ومتنفذة من الأقلية القبطية الأرثوذكسية.. التى حلمت وسعت إلى سلخ مصر من العروبة والإسلام.. والعودة إلى الماضى السحيق.. **ليكون «الحكم والنفوذ فى مصر خالصًا للقبط من دون المسلمين»** ـ كما قال الشيخ رشيد رضا، الذى كان أعمق وأوعى من صور هذه المحطة من محطات الغواية الاستعمارية لهذه الشرذمة القليلة، التى لم تقنع وهى ٥٪ من السكان بامتلاك ٣٠٪ من ثروة البلاد!..

***

* أما على جبهة الأقليات اليهودية: فلقد تفاعلت هذه الغواية الاستعمارية ـ التى أطلقها بونابرت.. والتى رعتها إنجلترا ـ حتى أفضت إلى قيام الحركة الصهيونية الحديثة.. والوكالة اليهودية.. ووعد بلفور سنة ١٩١٧م.. وقيام الكيان الصهيونى على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨م[1].

***

(١) انظر فى ذلك كتابنا: [فى فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة القاهرة ـ دار الشروق ـ سنة ٢٠٠٧م.